من تاريخ الطب الاسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غني

سفير إيران بمصر

(تتمة)

قد استنبط الأستاذ براون من بيان هذه الحالة أن ابتلاء المريض بالحميات المخاطة مع وجود قشعريرة تتقدم الحمى كان سبباً في أن ظن الرازي في بادىء الأمر مرضه حمى (الملاريا) ولا سيما أنه كان في بلاد تكثر فيها هذه الحمى . والحال أن هذه الأعراض لم تكن أعراض حمى الملاريا بل كانت نتيجة لمرض عفن ، وإن الرازي غير رأيه عند ما شاهد المدة في بول المريض وتحقق لديه أن المرض خراج في الكلى .

والغرض من استشهادنا بهذه الحادثة هو أن نبرهن على أن الأطباء كانوا يدرسون حالة المريض وأعراض المرض درساً وافيا دقيقاً وبهذه الطريقة كان طلاب الطب يتلقون من أساتذتهم درساً عمليا تجريبياً عن الطب وعلاج الأمراض المختلفة وفي نفس الوقت كان الطبيب يداوي المرضى ويزداد تجربة ومهارة في عمله وكان الجميع يخدمون صناعة الطب ويساهمون في ترقيتها بالدرس والبحث والتجارب المنظمة وفي القسم الداخلي من البيمارستانات عند ما كان يصعب تشخيص مرض مريض في قاعة من القاعات وتدعو الحال استدعاء طبيب أو أكثر من القاعات الأخرى غير القاعة التي فيها المريض للاستشارة كان يدعى عدد منهم فيتداولون في الأمر[1] .

وكان الأطباء يشتغلون في البيمارستان بالنوبة ، فجبرئيل ابن بختيشوع كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين[2]

وكانت دروس الطب تعطى على الأغلب في البيمارستانات فيجلس الطبيب لفحص المرضى ومعاينتهم فيصف العلاج اللازم للمريض ويكتب له ويشرح كيفية استدلاله على المرض للحاضرين ، وكان بين يديه المشارفون والعوامل لخدمة المرضى وكان كل ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير ونوع الطعام يوضع بجانب فراشه للرجوع إليه في تنفيذه وإجرائه .

وكان الطبيب يدور على المرضى بالبيمارستان ويتفقد أحوالهم ويصف لكل منهم علاجه وبعد فراغه من ذلك يأتي فيجلس في مجلس خاص في البيمارستان ويحضر كتب الاشتغال وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم يجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مدة ثم يركب إلى داره[1] .

وكانت هذه الطريقة في التدريس هي للمبتدئين من التلاميذ ؛ أما المشتغلون بالطب والمطلعون على كتبه ومن لهم بعض الاختبارات في البيمارستانات فكانوا يحضرون مجلس درس الأستاذ ساعات كل يوم فيجرى البحث عن المواضيع الطبية المشكلة أو النادرة ويتداولون فيها علميا وفنيا بكل حرية .

وقد كان النظر في بول المريض ، وكانوا يسمونه (القارورة) ، والاستنتاج من نظره ويسمونه (التفسرة) ، من الأمور الشائعة ولم يكن الأطباء يغفلون عنه .

وكانت للأطباء العرب في هذا الباب مهارة كبيرة تدل على قوة استدلالهم وحسن استنتاجهم .

يقول ابن أبي أصيبعة : (أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب أمام جماعة من الأطباء فقال الرشيد لبعض الخدم : « أحضره ماء دابة حتى نجربه » فمضى الخادم وأحضر قارورة الماء ، فلما رآه قال « يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان » قال له أبو قريش وقد كان حاضراً : « كذبت هذا ماء حظية الخليفة » فقال له بختيشوع (لك أقول أيها الشيخ الكريم ، لم يبل هذا إنسان البتة ، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة) فقال له الخليفة « من أين علمت أنه ليس ببول إنسان ؟ » قال بختيشوع « لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا ريحه » ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له (ما ترى أن نعلم صاحب هذا الماء) فقال « شعيرا جيداً » فضحك الرشيد ضحكا شديداً وأمر فخلع عليه خلعة حسنة جليلة ووهب له مالا وافراً وقال « بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم وله يسمعون ويطيعون »[2]

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الجزء الثاني صفحة ١٢٩

(٢) تاريخ الحكماء للقفطي صفحة ١٤٨

(١) طبقات الأطباء الجزء الثاني صفحة ١٥٥

(٢) طبقات الأطباء الجزء الأول صفحة ١٢٦

والخلاصة أن البيمارستانات لم تكن أعمالها قاصرة على معالجة المرضى فحسب ، بل إنها كانت أيضاً تقوم مقام مدارس الطب يتخرج منها الأطباء والكحالون والجراحون والمجبرون .

وكان لكل بيمارستان خزانة كتب أو مكتبة تحوى كثيراً من الكتب كانت فى متناول كل طالب علم ؛ وكان طالب الطب فى أول عهد الدولة الإسلامية بعد أن يتلقى أصول الطب على بعض مشاهير الأطباء ويقوم باختبارات شخصية وتجارب عملية كافية ويجد فى نفسه القدرة على مزاولة الطب يباشرها بعد أن يجيزه بعض الأطباء النابهين فى زمانه أو رئيس أطباء البيمارستان الذى كان يشتغل فيه .

ولم تكن هناك فى أول الأمر قيود خاصة أو امتحانات منظمة لإعطاء أجازة التطبب ؛ وإن أول من نظم هذه الصناعة وأخضعها لنظام خاص فى تأدية امتحان للحصول على أجازة التطبب هو المقتدر الخليفة العباسى ، وكان ذلك فى سنة ٣١٩ هـ . والسبب الذى دعا الخليفة إلى هذا العمل حسب رواية ابن أبى أصيبعة هو أنه اتصل به أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر الخليفة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء وطبيب الخليفة الخاص ، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة . وبلغ عدد من ترددوا إلى سنان وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح له التصرف فيه من الصناعة ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلا فى جانبى بغداد سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم فى صناعته وسوى من كان فى خدمة السلطان(١) .

وكان سنان بن ثابت يمتحنهم فيسأل كلا منهم بعض الأسئلة الطبية ويعرف معارفه ودرجة تمكنه فى الصناعة ، فيحدد له حدوداً يجيزه أن يتصرف ضمنها لا يتجاوزها .

وكانت الامتحانات الطبية فى ذلك العهد بسيطة جداً فيها كثير من التسامح والتساهل . يروى أنه دخل يوما فى مجلس سنان بن ثابت كهل موقر مهيب الطلعة عليه سيماء أهل العلم ولباسهم فأخذ مكانه فى جانب من المجلس ، وكان مظهره يدل على أنه من أجلة العلماء . وبعد أن انتهى سنان من درسه ومعالجة المرضى خاطب تلاميذه قائلا : « علينا الآن بالاستفادة من فضائل مولانا الشيخ ، ولنستمع لجوامع كلمه لتبقى لدينا تذكاراً لتشريفه هذا المجلس » . ثم سأل الشيخ عن اسم أستاذه فأخرج الشيخ من جيبه بدرة من المال وضعها أمام سنان وقال لست يا سيدى من العلماء ؛ لكنى رب أسرة أريد أن أعيلها عن طريق التطبب . فاشترط عليه سنان أن يكون محتاطاً فى عمله فلا يفصد أحداً ولا يعطى من المسهلات إلا الأنواع الساذجة البسيطة منها . فقال الشيخ كانت هذه ولا تزال طريقتى فى التطبب فإنى لم أعط أحداً غير الكمثرى والجلاب ، فأعطاه سنان أجازة التطبب فى هذه الدائرة المحدودة التى ذكرناها .

وجاءه غداة ذلك اليوم ضمن جماعة حضرت مجلسه لأخذ إجازات التطبب — شاب سأله سنان عن اسم أستاذه كما هى العادة فذكر اسم أبيه ، وكان الشيخ الذى ذكرنا قصته ، فسأله سنان عما إذا كان يسير على نهج والده . ولما رد عليه بالإيجاب أجازه أيضاً للتطبب فى نفس تلك الحدود .

كان هذا فى بادئ الأمر لكن الحال لم تستمر على هذا المنوال وصار النظام بعد ذلك أن الطالب بعد أن يتم دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء برسالة فى الفن الذى يريد الحصول على الأجازة فى الاشتغال به أو لأحد مشاهير الأطباء قد أجاد دراستها فيختبره فيها الطبيب ويسأله أسئلة عدة عن هذا الموضوع ، فإن استطاع اجتياز الامتحان أعطاه أجازة تطلق له التصرف فى حدودها .

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك مؤلف كتاب (تاريخ البيمارستانات فى الاسلام) فى كتابه القيم المذكور الذى نشرته جمعية التمدن الإسلامى بدمشق سنة ١٣٥٧ هجرية أنه عثر فى خزانة كتب المرحوم العلامة أحمد زكى باشا على صورتين لإجازتين طبيتين من القرن الحادى عشر من الهجرة منحت أحداهما لفصاد والأخرى لجراح(١) وها نحن أولاء نذكر هنا ملخصهما : —

(وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ، ومنهاج الألباء ، الشيخ شهاب الدين ابن الصالح الحنفى رئيس الأطباء بالديار

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢٢٢ .

(١) كتاب تاريخ البيمارستانات فى الاسلام صفحة ٤٣٠

المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزام أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه : —

الحمد لله ومنه أستمد العناية .

الحمد لله الذى وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم على مر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين . وبعد فقد حضر عندى الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام ... بن ... بن ... على المؤذن الجردانى (أو الجرداءانى نسبة إلى جرداءان وهى محلة بمدينة أصبهان بإيران)(١) المتشرف بخدمة الجراح ، والمتقيد بخدمة الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصورى وهو الشيخ عبد المعطى المشهور بابن رسلان نفعنا الله ببركاته ، ورحم أسلافه العارفين الصالحين ، وعرض على جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه وما يترتب عليه من المنافع المفسوية . والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الانصارى(٢) شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جنانه بمنه وكرمه ، عرضاً جيداً دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة ، وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية (وباقى الأجازة مفقود)

والإجازة الأخرى أيضاً من القرن الحادى عشر الهجرى وهى صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصورى (قلاوون)

وخلاصتها بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والسلام على آله وصحبه أنه وقف على الرسالة الموسومة (ببرء الآلام فى صناعة الفصد والحجام) نظم لوذعى زمانه وألمعى عصره وأوانه ، الشمس شمس الدين القيم شهرة ، الجراح صنعة ومهرة ، التى أصلها للشيخ الفاضل حاوى الفضائل الشيخ شمس الدين الشريفى الجراح الموسومة (بنهاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد) وقد قرأها عليه قراءة اتقان وإمعان فلم ير بداً من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك الفوائد. وقد أجاد ناظمها فى تحقيقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتدقيقها ... إلى أن يقول استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الإجازة فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التى تبرأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرائين ، وإن يقلع من الإسنان الفاسد الموسين (كذا) إلى أن يقول ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال فى كل حال ومآل) .

وإمضاء هذه الإجازة كما يأتى : —

(رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح ، الفقير للحق على بن محمد بن محمد ابن على الجراح ، خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ومصلياً ومسلماً ومحمداً ومحوقلا ومستغفراً بتاريخ صفر الخير من شهور سنة إحدى عشرة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله وحده)

وقد كان الصيادلة أيضاً خاضعين للرقابة فى أعمالهم يؤدون امتحاناً خاصاً قبل اشتغالهم بهذه الصناعة حتى يوثق من علمهم بالأدوية والعقاقير ، ويؤمن مغبة غلطهم فى إعطاء الأدوية والعقاقير ...

يذكر ابن أصيبعة فى الجزء الأول من مؤلفه طبقات الأطباء ضمن شرح حال زكريا الطيفورى الطبيب — وكان من مشاهير الأطباء فى زمن الخليفة المعتصم — قصة خلاصتها (أنه بينما كان الأفشين فى معسكره وهو فى محاربة بابك سنة ٢٢١ هجرية وكان معه زكريا الطيفورى الطبيب أمره بإحضار جميع من فى عسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كل رجل منهم ، فرفع ذلك إليه ؛ فلما بلغت القراءة بالقارىء إلى موضع الصيادلة قال الأفشين لزكريا الطيفورى (يا زكريا ضبط هؤلاء الصيادلة عندى أولى مما تقدم فيه ، فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره) فقال زكريا (إن يوسف لقوة الكيمائى) قال يوماً للمأمون (إنما آفة الكيمياء الصيادلة ؛ فإن الصيدلانى لا يطلب الإنسان منه شيئاً من الأشياء كان عنده أم لم يكن إلا أخبره بأنه عنده ، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع امتحاناً لا يعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة

(١) لب اللباب للسيوطى

(٢) واسم الرسالة نهاية المقصد فى صناعة الفصد منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

فى طلبه لتبتاعه فليفعل) فقال المأمون (قد وضعت الإسم وهو شقطيثا (وهى ضيعة تقرب من مدينة السلام) ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن شقطيثا فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته ، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم أتى بوبر . فاستحسن المأمون نصح يوسف لقوة واهتم بأمر الصيادلة ومراقبتهم .

وبعد ذكر هذه الحكاية أشار زكريا القزويني على الأفشين أن يمتحن الصيادلة ، فأعجب الأفشين برأى زكريا ودعا بدفتر الأشربة سنة فأخرج منها نحواً من عشرين إسما ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء ، فبعضهم أنكرها وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته . فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة ، فلما حضروا كتب لمن أنكر معرفته تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام فى عسكره ونفى الباقين عن العسكر ولم يأذن لواحد منهم فى المقام . ونادى المنادى بنفيهم وباباحة دم من وجد منهم فى معسكره[1]

وكان من جملة وظائف المحتسب — وكانت يده مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — مراقبة الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين .

جاء فى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة[2] وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط ويحلفهم أن لا يعطوا أحد دواء سماً ، ولا يركبوا له سما ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل ، ولا يفشوا الأسرار ، ولا يهتكوا الأستار ، إلى غير ذلك من الأمور التى يجب على الأطباء مراعاتها فى عملهم .

كما كان للمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين فى كتابه المعروف (بمحنة الطبيب) وأما الكحالون فقد كانوا يمتحنون بكتاب العشر المقالات فى العين[3] لحنين أيضاً ، وكان على المجبرين أن يؤدوا امتحاناً فى المقالة السادسة من كناش بولس الأجانيطى فى الجبر الذى قام بنقله إلى العربية حنين بن اسحق .

وأما الجراحون فكان عليهم أن يكونوا ملمين بكتاب جالينوس الخاص بالجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وما يتصل به .

وكان للمحتسب أيضاً مراقبة الصيادلة بمساعدة الأطباء والمتخصصين فى معرفة الأدوية والعقاقير وإرشادهم .

إن وصف شتى البيمارستانات التى كانت منتشرة فى مختلف البلاد الإسلامية وتبيان تاريخ بنائها وأسماء بنائها وطريقة إدارة أوقافها وذكر أسماء كبار أطبائها والطلبة الذين كانوا يلتقون العلم فيها يحتاج لبحث خاص ، وقد وفى الموضوع حقه المرحوم الدكتور أحمد بك عيسى فى مؤلفه القيم (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) وفيه يذكر رحمه الله أسماء ثمانين من هذه البيمارستانات التى كانت تدار فى مصر وإيران والعراق والجزيرة وسورية وجزيرة العرب وبلاد الروم أى آسيا الصغرى واسطنبول وبلاد المغرب والأندلس بتفصيل واف فليرجع إليه من أراد التفصيل فهو خير مرجع فى هذا الباب .

قاسم غنى

(١) الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ١٥٢

(٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزرى (مخطوط)

(٣) طبع هذا الكتاب لحساب الحكومة المصرية مع تعليق الدكتور ماير هوف المستشرق الرمدى المعروف .

محمود خفيف
يقـــدم
تولستوى
قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه
ثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد